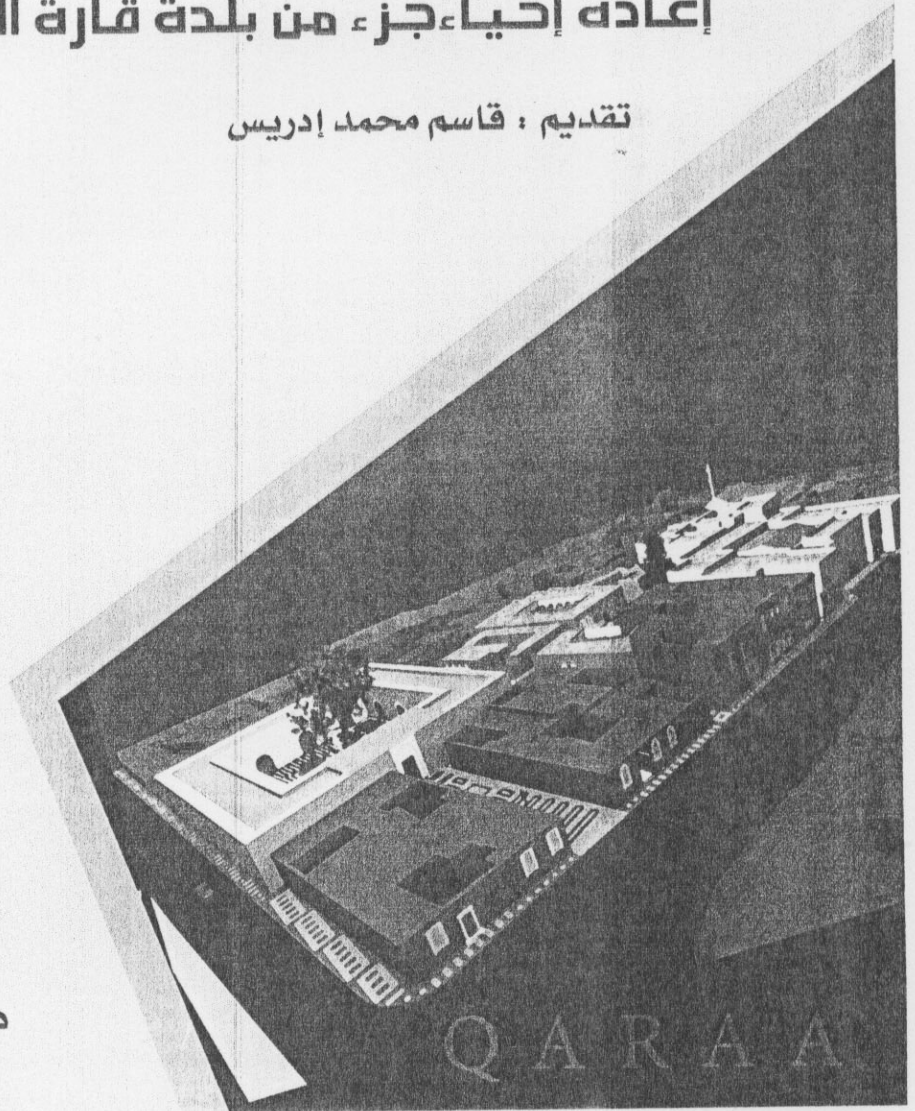


جامعة دمشق
كلية الهندسة المعمارية

إعادة إحياء جزء من بلدة قارة القديمة

تقديم : قاسم محمد إدريس

بإشراف
د. زياد الملا
د. موفق دغمان



قارة

تقع قارا شمال شرق دمشق حوالي 95 كم.
تضم مجموعة من الأبنية الأثرية مثل:

1 - الجامع الكبير: يعتقد أن بناءه الأصلي كان معبداً في العصر الروماني، ثم حول إلى كنيسة في العصر البيزنطي، وفي العصر المملوكي حول إلى جامع بأمر من السلطان الملك الظاهر بيبرس عام 664 هـ (القرن الثالث عشر الميلادي) وما زال مستخدماً حتى الآن.

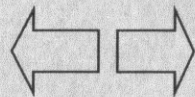
سجل في عداد المباني الأثرية بالقرار الصادر عن وزارة الثقافة رقم 80 / أ تاريخ 30 / 5 / 1973 .

2 - خان نور الدين: بني في عهد الملك نور الدين محمود الزنكي (511 - 569 هـ) (القرن الثاني عشر الميلادي)، ويتألف من باحة تحيط بها خمسة أجنحة، جناحان صغيران في الضلع الذي توجد فيه البوابة، وجناح في كل ضلع. يشغله حالياً ناد رياضي، ويحتاج لأعمال ترميم متكاملة.

سجل في عداد المباني الأثرية بالقرار الصادر عن وزارة الثقافة رقم 6 / أ تاريخ 21 / 1 / 1973 .

3 - مجموعة من أفنية المياه: تعود إلى العصرين الروماني والبيزنطي مثل قناة عين الطيبة وعين القطنة وعين البيضا.

4 - دير مار يعقوب: شمال غرب قارة حوالي 2 كم.



توطئة

لكل جماعة من بني البشر تقاليد خاصة بها وعزيرة
عليها، نابغة من ارضها وجوها ومن ادبها وتاريخها، و هي
ارث الاجيال، وكل ارث عزيز لانه يحمل ذكرى الاباء و
الاجداد .

والنسان يحمد زمانها ويذمه، ولكن في طبعه دائما حمد الزمن
الذي قد فات، وللزمن حرمة وقداسته. ونحن البشر يلذ لنا ان
نسترجع الزمن، والزمن هو الماضي، ومن لا يحفظ ماضيه
لا يضمن مستقبله.

ومن تقاليد الشعوب ومن مآثوراتها ما يسموه بالميراث الثقافي
، وهو كل ما انتقل على مر الزمن من جيل الى اخر وكل ما
اتصل بالفن بشكل خاص كفن الملابس والمطعم، وكل ما في
الحياة من افراح واحزان.

قارة

أصل تسميتها: قارة تسمية عربية الأصل تعني التل الصغير ويقول الأصمعي: القارة اصغر من الجبل. والتاء المربوطة كانت تكتب في الماضي ألفا ممدودة (قارا) وكان يدعوها الروم كارا وكوارا. وذكرها الجغرافي بطليموس تحت اسم جواريا.

الموقع والحدود: تقع قارة على الطريق الدولي بين دمشق وحمص فوق هضبة تتدرج ارضها بالارتفاع غربا نحو سفوح جبال لبنان الشرقية وتحيطها سهول جرداء تتخللها خواصر الماء المنحدرة من تلك السفوح وترتفع البلدة ١٣٠٠ م عن سطح البحر وتبلغ مساحة حدودها الادارية حوالي ٢٩٠ كم وهذه المساحة لا تشمل أراضي البلدة الداخلة ضمن الحدود اللبنانية والاصبح الرقم ٤٠٠ كم

يجاورها من القرى جراجير من الجنوب الغربي وبينهما ٨ كم ودير عطية من الجنوب وبينهما ٦ كم ومزرعة المكسر ومن الشمال البريج ١٨ كم وتبعد عن النبك مركز المنطقة ١٧ كم وتتبع ناحية دير عطية لمحطة تاريخية عن قارة ونشاط سكانها:

قارة موقع سكنه الانسان منذ عصور موغلة في القدم تدل على ذلك اطلال الصروح الكبيرة وينابيع الماء الكثيرة المنتشرة فيه وقارة من المواقع القديمة التي لم تحظ باهتمام كاف في مجال التنقيب عن اثارها واستثمارها سياحيا. وما يعرف عنها حتى الان لا يتعدى ما ذكره المؤرخون والرحالة منذ العصر الروماني وما تلاه اما ما سبق ذلك فما زال ضمن المجهول .

وما يمكننا قوله الان ان هذه البلدة تحوي اثارا ومعالم جميع الحضارات المتعاقبة منذ العهد الروماني الى الان واهمها دير القديس مار يعقوب الذي شيد مكان الحصن الروماني الى الشمال الغربي من قارة ويعد من اقدم اثار القلمون الرومانية.

ومعبد الشمس الذي شيد مكانه كنيسة القديس نقولا وتحولت الى مسجد عام ١٢٦٠م في زمن الملك الظاهر وهو الجامع الكبير حاليا. وفيها خانان احدهما من اثار الملك نور الدين الزنكي والثاني بناه تنكيز خان نائب السلطنة في بلاد الشام وفيها كهف روماني قديم يدعو السكان كهف صوفيا

مصابيح وادوات زجاجية وفيها عدد من الاضرحة والمزارات لرجال صالحين كالسيح يوسف والسيح العجمي والشيخ العمري والشيخ علي

وتوجد اثار لقصر قديم في وادي القبو و بئر قديمة في قمة حليلة وفي جبل الكودن شمال شرقي البلدة توجد كتل صخرية مهذبة بيد الانسان قديمة على شكل اوعية مربعة مجوفة لم يعرف الهدف من صنعها وتوجد في ارضها ايضا ١٢ عين ماء تروي ١٢ مزرعة منتشرة حول البلدة بالاضافة الى مرور الماء في جرودها الغربية وفي وادي مار طيبة توجد مغارة تدعى مقيل الرهبان يروي ان رهبان دير يعقوب لجؤوا اليها هربا مما تعرض له سكان قارة المسيحيون في زمن الملك الظاهر ويقال انه في هذه المغارة سرداب يتصل بالدير ذاته وفي باطن الارض تحت الدور السكنية توجد غرف و دهاليز كان السكان يلجؤون اليها عندما يداهمم خطر ما .

وفي العهد البيزنطي كان لقارة شان كبير على الصعيد الديني و شكلت فيها وفي يبرود اسقفيات في القرن الخامس الميلادي و اشار بطريك انطاكية ما كاكير الثالث الذي توفي سنة ١٦٧٢ م في القائمة التي نظمها باسماء الاساقفة الذين حضروا مجمع نيسه الى اسقف قارة (قسطاس) و كذلك مجمع كالسيدوان عام ٤٥١ م مثل القلمون فيه الاسقف دادا من قارة و ازيب من يبرود .

وفي العهد العثماني تعرضت قارة لغزو العراب من عشائر الغياث وقتل من ابنائها على يد هؤلاء المدعور هاوي قدور ومن ابنائها الذين ذهبوا مع الجيش التركي ولم يرجعوا ذكروا لي صالح الحجى و ابراهيم الحجى و محمد الحجى و جرجس الراعي و حسن ادريس .

اما الذين هاجروا الى امريكا فهم كثر ونجح بعضهم في بلوغ مناصب رفيعة كالسيناتور كليمنتي عبد السلام الذي تبوأ منصب رئيس الوزراء في الارجننتين و كذلك شقيقه خوركي عبد السلام الذي تولى منصب قائد الجيش اما شقيقهما الثالث سليم عبد السلام فكان خوريا و الشقيق الرابع كاتشو عبد السلام كان قاضيا .

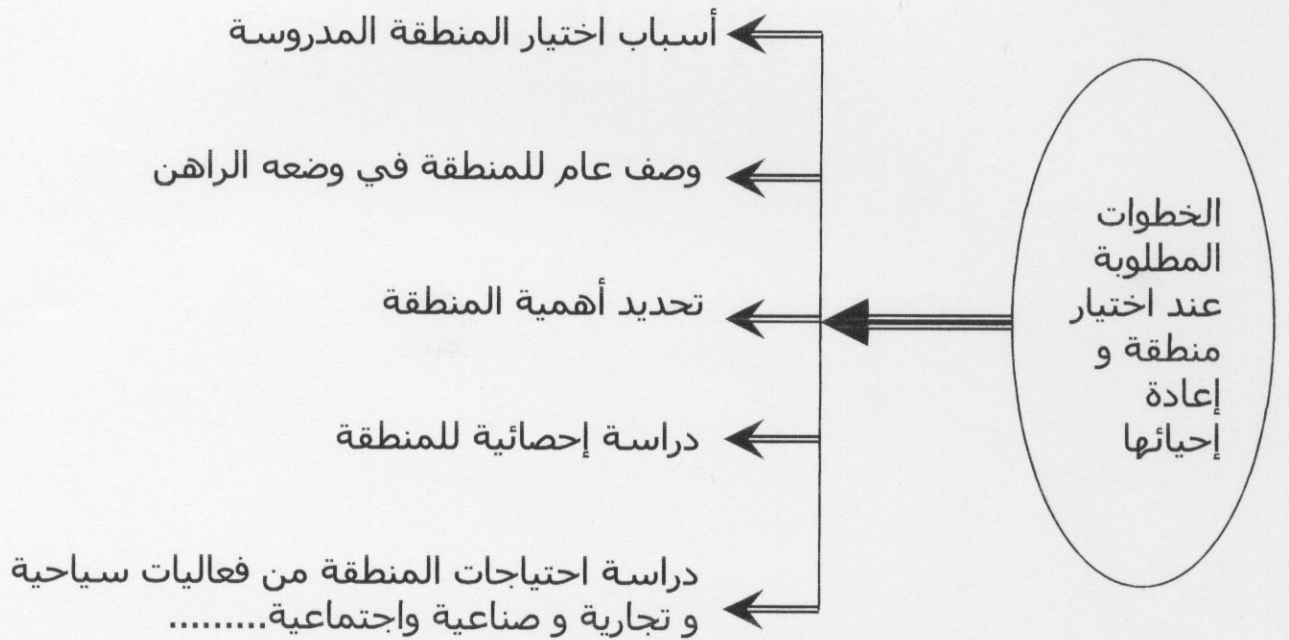
وفي زمن الاحتلال الفرنسي جرت على ارضها معركة مشهورة في موقع عيون العلق عام ١٩٢٦ م بين ثوار القلمون والقوات الفرنسية القادمة من حمص استشهد فيها الضابطان الثائران فؤاد ارسلان و ابراهيم صدقي و دفنا هناك الى جانب نايف قدور و امين ابو الذهب و محمد عز الدين و محمد الشيخ حسين .

ومن ذكريات هذه البلدة مبيت الرئيس جمال عبد الناصر فيها عام ١٩٥٩ م في ليلة شتوية سد الثلج فيها الطريق العام الى حمص ايام الوحدة بين سوريا و مصر .

وفي صراعنا مع العدو الصهيوني قدمت قارة الشهداء مهدي ادريس واحمد قليح عام ١٩٦٧ م ونبيل رمضان ومحمد طيبة وعبد العزيز حمود ١٩٧٣ م.

اما نشاط سكانها البالغ عددهم بتاريخ ١٩٩٧/١/١ م ١٧٤٥٧ نسمة فبعضهم يعمل في المهن الحرة و اخرون في وظائف الدولة الى جانب اعمال الزراعة التي لوحظ ازدياد الاهتمام بها فب السنوات الاخيرة حيث تتسع مساحة الاراضي المشجرة باغراس مثمرة بعلا في الوديان الغربية خاصة الكرز واللوز و تنتج المشمش في بساتينها و العنب من كرومها وكانت تقوم عليه عدة معاصر وفيها عدد من الطواحين الهوائية كما ينتجون البطاطا و القمح من نوعية جيدة وبعض الخضر و الذرة الصفراء ريا. اما جبلها الغربي فكان مغطى بحراج السنديان والزعرور و العبوش والزاب لكن الاهالي كانوا يقطعون تلك الاخشاب ويقدمونها للاتراك من اجل الاعفاء من الخدمة العسكرية وكانو يبادلون الذرة ببالتين مع اهل رنكوس و البطاطا باطباق القش ومع اهل منين.

- نتيجة التطور العمراني الذي يلي التصنيع في المجتمعات في كل مكان والذي يشكل تهديد للمناطق والمراكز التاريخية والأحياء القديمة التي تعمل كوثائق تاريخية تجسد قيم الثقافات العمرانية التقليدية ولمواجهة هذا الوضع المأساوي الذي غالبا ما يؤدي إلى خسائر ثقافية واجتماعية وحتى اقتصادية لا يمكن إصلاحها، اتخذت المبادئ التالية في العمل:
- ١- الحفاظ على الشخصية التاريخية للمنطقة العمرانية كالنسيج العمراني والعلاقات بين الأبنية والفراغات المفتوحة، والمظهر الرسمي للأبنية من الداخل والخارج، والعلاقة بين المنطقة التاريخية ومحيطها سواء الطبيعي أو الذي من صنع الإنسان
 - ٢- يجب أن تكون النشاطات والوظائف الجديدة منسجمة مع شخصية المنطقة التاريخية و متناسبة مع متطلبات الحياة العصرية
 - ٣- الحفاظ على البيوت القديمة (الحالة الجيدة و المتوسطة)
 - ٤- الحفاظ على الحارات القديمة و احترام حدود الممرات بين الأبنية
 - ٥- احترام الارتفاعات في المنطقة



● أسباب اختيار المنطقة المدروسة

أهمية المعالم الأثرية الموجودة
 فقر المنطقة بالفعاليات الخدمية والسياحية والصناعية
 وجود المنطقة السكنية التاريخية
 تركب بعض الفعاليات الإدارية و الصحية و التجارية

وجود بعض الينابيع العذبة

● تهديد أهمية المنطقة

بعد المنطقة التاريخي الشارع الحيوي الذي يشكل العصب التجاري و الصناعي لقارة المحور السياحي بدء من خان نور الدين الشهيد مرورا بالجامع الكبير وكنيسة سرجيوس وباخوس وصولا إلى دير مار يعقوب المقطع

● الدراسة الإحصائية لبلدة قارة:

- عدد المدارس الابتدائية ستة مدارس
- ثلاثة مدارس إعدادية
- أربع مدارس ثانوية منها مدرسة للذكور ومدرسة للإناث ومدرسة مهنية و مدرسة فنية
- روضتان
- مستوصف واحد
- مشفى واحد
- سبع صيدليات
- ثلاثة مراكز بيع أدوية زراعية
- مركز شرطة (مخفر)
- مركز ثقافي صغير
- مطحنة حبوب عدد اثنين
- محمصة عدد اثنين
- فرن نصف آلي عدد اثنين
- مصنع ألبان واجبان عدد اثنين
- حواض بيض عدد اثنين
- مزارع دواجن عدد خمسة عشر
- مزارع أبقار عدد ثلاث
- معمل صناعة أعلاف عدد اثنين
- عدد النجارين اثنا عشر
- عدد نجارين الموبيليا خمسة ورشات
- عدد الحدادين سبع عشرة ورشة
- عدد محلات التصليح السيارات أربع ورشات
- عدد ورشات تصليح الدراجات النارية ثمانية ورشات
- ورشتين لصناعة صناديق السيارات
- خمسة عشر معملا لصناعة البلوك والأنابيب البيتونية
- أربعة معامل لصناعة البلاط
- عشرين محل لبيع وتصليح الأدوات الكهربائية
- أربعة مشاغل للتنجيد الحديث

- ثمانية مشاغل خياطة حديثة
- محل لصناعة البوظة
- ستة محلات لصناعة الحلويات
- ثلاث مشاغل خراطة
- مغاسل و مشاحم سيارات عدد ثلاثة
- محطتين للوقود
- محطة نقل عدد اثنين
- مستودع أعلاف
- مصنع دبس
- ثلاث محلات لصناعة البسط
- مستودع أعلاف
- خزان مياه
- ثلاث ينابيع للمياه

• احتياجات المنطقة من فعاليات سياحية و

تجارية و صناعية واجتماعية

- مجمع تجاري
- مجمع محترفات
- مطعم
- إعادة تأهيل الخان القديم
- مقهى
- مركز ترفيهي
- مركز ثقافي

برنامج المشروع:

١- مجمع محترفات مع محلات تجارية 1600م <

- ١- الطابق الأرضي ٧٦٠م <
 - محلات تجارية لبيع المصنوعات الحرفية ١٢ محل
 - محلات لعرض المحترفات (صناعة الفخاريات- الأحذية- اللباس التقليدي - القشيات - الجلديات -
 - دورات مياه
 - بوفيه
 - فناءات مع أركان جلوس وخضار ١٢٠م <
- ٢- الطابق الأول: ٨٠٠م <
 - كوكتيل ٣٥

يضم محترفات ١٢ محترف متنوعة تشمل الصناعات التقليدية
والمحلية (صناعة الفخاريات- الأحذية- اللباس التقليدي - القشيات -
الجلديات -

مدخل خاص مع بهو وركن جلوس واستعلامات

٢- المركز التجاري ١١٥٠م

- الطابق الأرضي ١١٥٠
- ويضم ١٨ محل بمساحة
- الطابق الأول: ١٢٥٠
- يضم عدد من الصالات الترفيهية وصلات الالعاب (وسادة هوائية ١٠٠ العاب كمبيوتر ١٠٠ شطرنج ٧٠ فيشة ٥٥ بلياردو ١٢٥ طاولة ٨٥ كافتريا ١٧٠ + تحضير ٣٠ أركان جلوس ٧٠ محلات بوظة + عدد ٤ -٢٥-

٣- المركز الثقافي ٦٢٠

- يتألف من
- مكتبة ١٦٠
- قاعة تدريسية ٥٠
- مدرج ٨٠
- قاعة انترنت ١٠٠
- ادارة ٣٠
- مستودع ١٦
- فناء ١٢٠

٤- النزل

- الطابق الأرضي
- يتألف من ايوان ٢٠ فناء ٥٠ ركن تسجيل واستقبال ٢٥ بوفيه ١٥ مكان الاقامة ٣٣٠
- الطابق الأول
- يتألف من الادارة ٤٠ مكان غسل البياضات والكوي + مستودع ٣٠

٥- صالة طعام خاصة للمأكولات الشعبية ٣٢٥

- مطبخ ٢٥
- ادارة ٣٥
- صالة الطعام ١٤٥
- دورات مياه

٦- مقهى ٢٢٥

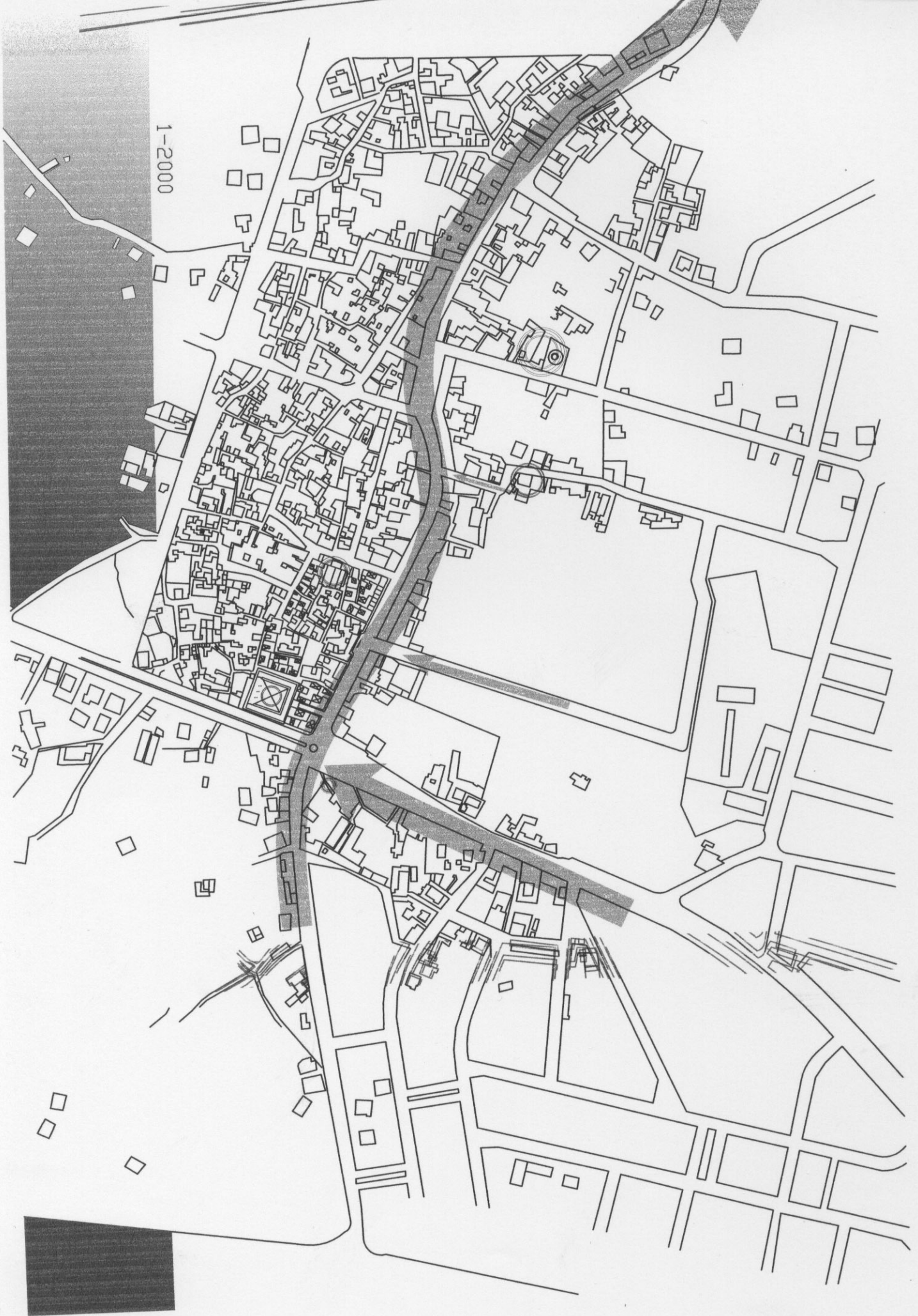
- يتألف من ايوان ٣٠
- كافتريا ٦٠

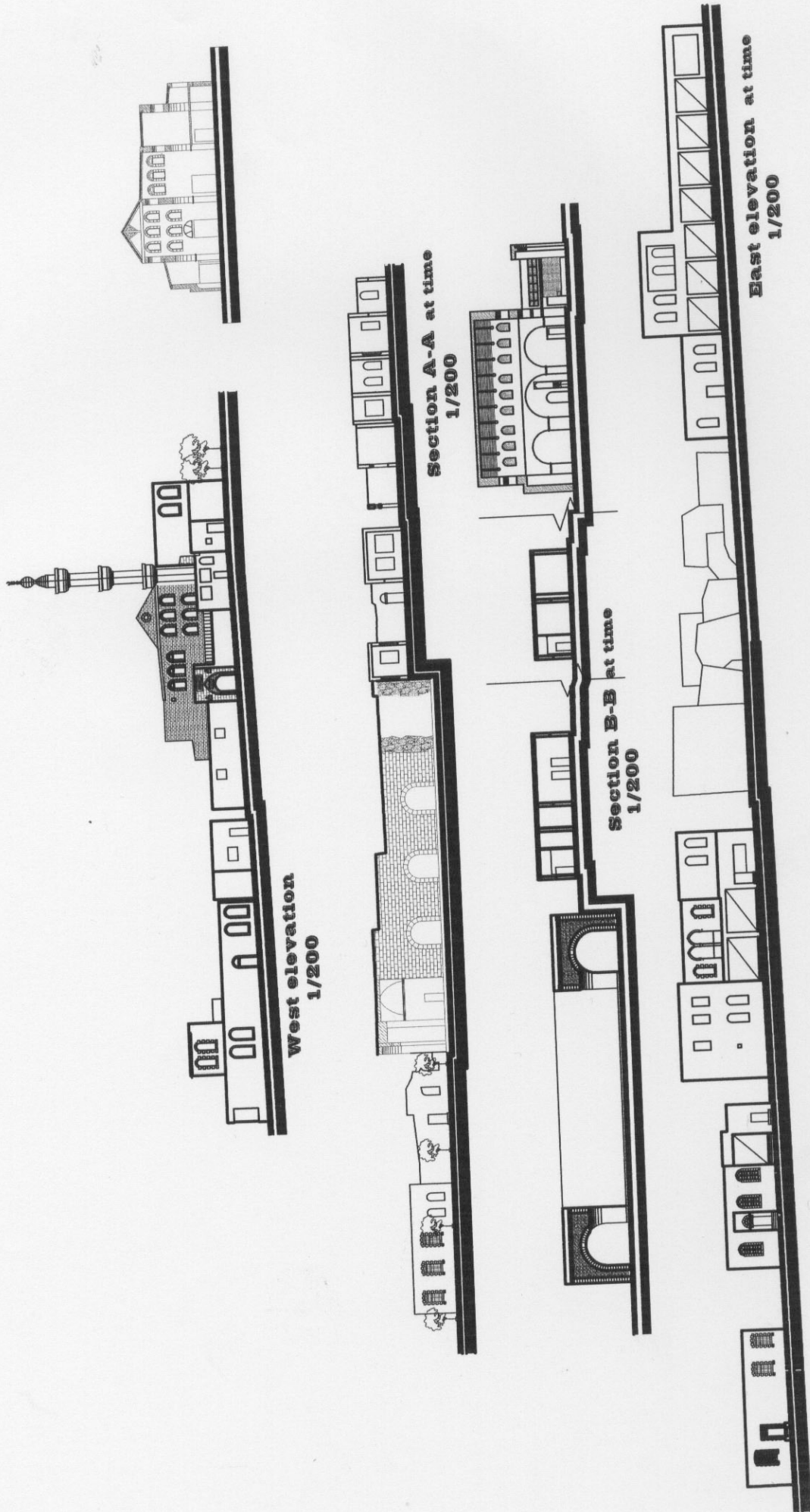
• كوكتيل ٢٥

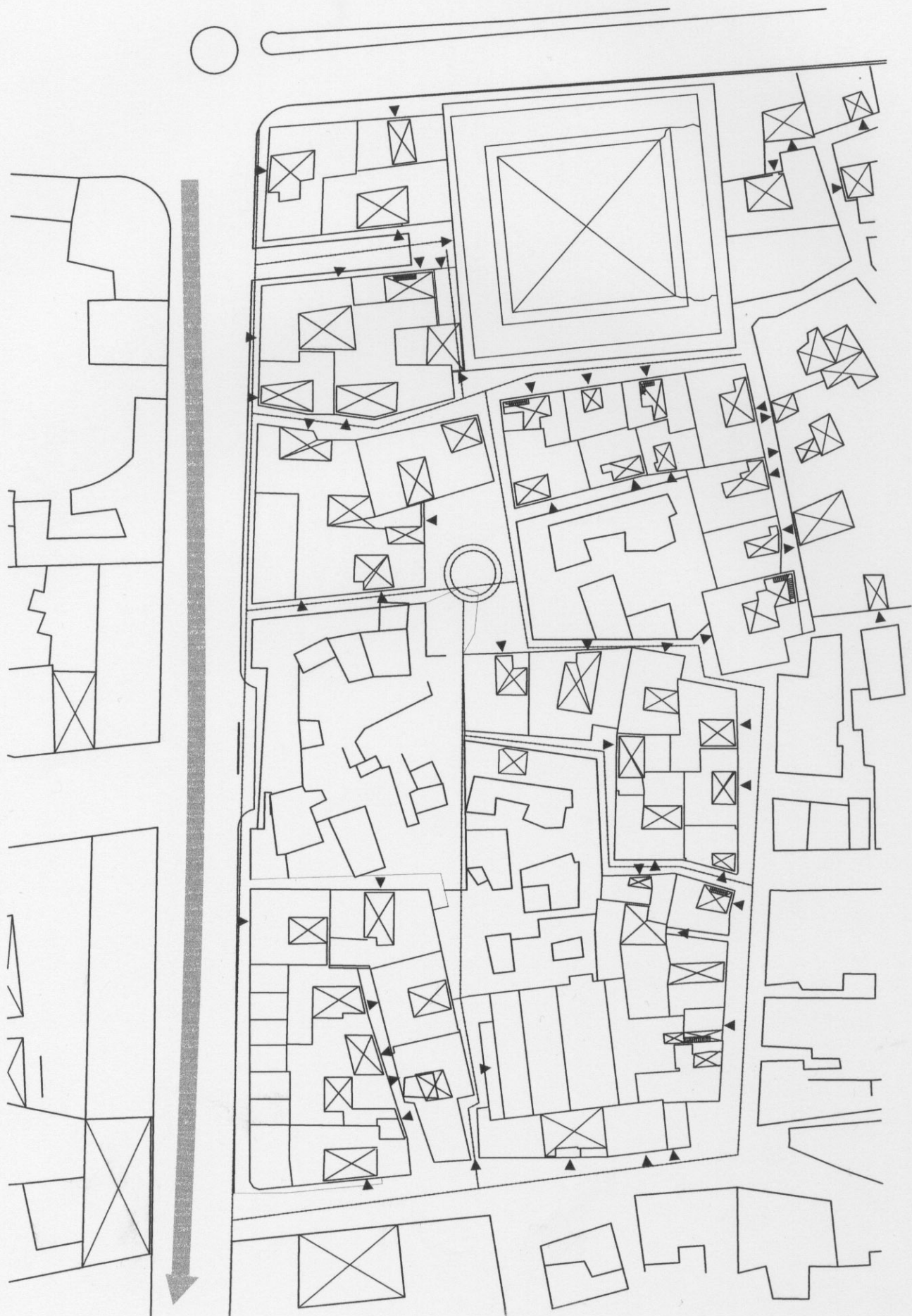
٧- إعادة تأهيل الخان القديم :
ترميم خان نور الدين وتحويله الى محتف للأثار التي
وجدت في قارة ومعرض للأعمال الفنية والتقليدية

- الجناح الأول معرض للتحف ٣٠٠
- الجناح الثاني للأعمال الفنية والتراثية ٣٠٠
- الجناح الثالث العرض الطبيعي ٢٣٠
- الادارة ١٠٠ المستودع ٨٠
- الاستعلامات ٥٠
- الحارس ٧٠

1-2000







1-500



الرؤى الجمالية في الدار التقليدية-توطئة

أحيانا تفقد الأمل وأنت تبحث في المدينة الخليجية الحديثة من هنا وهناك عن ملامح جمالية مدروسة . فتعود بخفي حنين دون أن تحقق غايتك. إن القيم الجمالية تكاد تتلاشى من المدينة وتذوب في صرعة العصر وموجته التغريبية نحو الحداثة وطلب التقنية ومحاولة اللحاق بالمدينة والتحضر . هذه الهجرة الفجائية السريعة في المدينة الخليجية الحديثة نسيت خلفها تراث ماض عريق حافل بالكنوز التراثية. والتراث المعماري يتصدر قائمة هذه التحف الثمينة بكل المقاييس . ولاشك أن القيم الجمالية التي خلفها ذاك التراث على أطلاله لاتقدر بثمن وتعد من فرائد هذه المنطقة . هذه المقالة تبخر في تحفة تراثية عمرانية تقليدية في دولة البحرين لتلتقط بعض درر الجمال المعماري النادر المثل في أحياء هذا البلد العريق. هذه التحفة المعمارية هي بيت الشيخ عيسى بن علي الخليفة رحمه الله تعالى الذي شيد في قلب العاصمة القديمة - المحرق- في حوالي عام ١٨٠٠ [١] فإن انسلخت كثيراً من المعاني عن اللوحة المعمارية المتشكلة على كل سطح من جداريات العمارة المحلية المعاصرة ، فإنك تقرأ على جدران عمارة الماضي قصصاً مختلفة ومتنوعة وتستمتع بمعاني جمالية رفيعة، بيئية واجتماعية وبصرية تطرحها أجزاء هذه المقالة المختصرة.

المعاني البصرية

ينحو كثير من الواصفين المعماريين في تذوقهم للعمل المعماري بالإعتماد على الشكل والتأثير البصري . فنتوري أحد رواد العمارة في هذا القرن برز في هذا الإتجاه وأبدع كثيراً حتى أصبح كتابه التعقيد والتناقض في العمارة " Complexhty and Contradiction in Architecture أحد الكتب النادرة في هذا القرن التي تناقش الجمال المعماري في العمارة المعاصرة الذي نحن في أشد الحاجة لمثله خاصة فيما يتعلق بتطبيقه على البساطة المبتدلة التي انتهجتها عمارتنا المحلية والإقليمية. ويتميز هذا الكتاب بأنه يركز على دروس بليغة في استلهام التراث المعماري وبالأخص الأشكال التراثية أو مايسمىها فتوري بالعناصر التاريخية والتقاليد ويدعو إلى توظيفها بشكل فعال في العمارة المعاصرة. وهو كتاب قيم يعتمد على تحليل الظواهر الجمالية. ولعله أهم كتاب كتب في صنع العمارة منذ كتاب لكوربوزيه نحو عمارة ما "Vers Une Architecture" فنتوري يبرز في تحليله العجيب بحيث يجعلنا فعلاً نرى الماضي بمنظار جديد. ولهذا جمع الأسلوب البصري مع المقصد الثقافي الرفيع. ويؤكد أن العمارة الجيدة تستحضر عدة مستويات. ولهذا فنتوري يرى أن العمارة الحديثة انسأقت الى البساطة المبتدلة والشكل المستطيل والعزل والإستبعاد [٢]. وهذه من المشاكل المعاصرة التي وفدت إلينا مع مذهب العمارة الحديثة واتجاهاتها. "فقد شجعت العمارة الحديثة العزل والتخصص على كافة المقاييس والأصعدة في المواد والتركيب الإنشائي شأنهما في ذلك شأن برنامج المتطلبات والفضاء... بالإضافة إلى تخصيص شكل معين إلى مواد وتراكيب إنشائية معينة فإن المعماري الحديث يقوم بعزل العناصر وتحديدها من خلال العناية الفائقة بالتفاصيل ... " (فتوري ١٩٨٦م) ويشير فتوري عن تجربته والعمارة الحديثة " في العمارة الحديثة كثيراً ما اضطررنا للعمل تحت القيود التي تفرضها الأشكال المستطيلة المتعنتة والتي يفترض فيها أن تكون نابعة من المتطلبات التقنية للهيكل الإنشائي والجدار الستائري المنتج بالجملة" (فتوري ١٩٨٧م) ومن الأمثلة على معماريي العمارة الحديثة رايت Frank Loyd Wright فكان يموه إستثناءاته ويحاول أن يؤكد أفيقاته كثيراً. أما ميس Mies Van der Rohe فقد كان لايسمح لأي شئ أن يعوق تجانس

أجنته الكاملة دوماً والمؤلفة من النقطة والخط والسطح . حتى فنتوري نفسه وبالرغم من إنتقاده العمارة الحديثة إلا أنه كان يقتصر على الجانب البصري كعادة العمارة ما بعد الحديثة فكانوا لا يرون غضاضة في إستيعاب العمل المعماري لعناصر وأشكال تاريخية يرى المصمم أهمية إيجادها لإحداث أثر نفسي لدى المتلقي بلاية ضرورة [٣.]

العمارة المحلية المعاصرة اتسمت بالواجهات المملة في أصنافها السكنية والشقق والمكتبة والتجارية وشهدت منذ الشكل السوتد الثارتي وأحياناً المنتج بالجملة Mass Productio إلى المساكن حتى وكان العلم المعماري قد انحسر ، بل وكان الساكن أو المستخدم ربوت مكرر. و إذا تناسيت الوحدات السكنية -افتراضاً - فاجأتك المباني المكتبية في إبتدالها وبساطتها المتناهية في إختلاف هيكلاها وهيمنة قشرتها الزجاجية وقد خلت من أي معنى . لكنك إذا تحولت إلى الدار التقليدية هالتك التراكمات الجمالية وخاصة المعاني البصرية ، حتى تأسر عينك فتقف أمام عظمتها مشدوهاً منبهراً أمام ماتراه من إبداع .بيت الشيخ عيسى بن علي الخليفة رحمه الله تحفة تراثية يسجل حفظها بفخر لحكام هذا البلد المعطاء ذو التحف المعمارية التقليدية المتميزة الذين حملوا على عاتقهم خدمة تاريخ هذه الأرض. جاء في إفتاحية كتاب (بيت الشيخ عيسى بن علي الخليفة) لوزارة اعلام حكومة البحرين "منذ بدأت وزارة الإعلام خطتها في ترميم الأماكن التاريخية في البحرين كانت تضع نصب أعينها الهدف المنشود بأنه بإكتمال عملية الترميم ستكتمل الصورة الجلية لتاريخ هذا البلد العريق المتشح بماض حضاري خالد."

فإذا بدأنا الرحلة الجمالية في البيت فإننا إذا غضينا الطرف عن كل الجهات وتأمنا الجهة الميئة - الجنوبية - إذا صح اللفظ على انها الأقل ثراء في الجماليات ، لوجدناها إبداعاً نادراً الوجود في العمارة الحديثة. المحلية. بالرغم من أن السطح يكاد يكون مستوياً إلا ان البادجير المنتشر على وارش السطح كسر الإستواء بتجاويفه لتتساءل : هل السطح مستوي أو مجوف. فتعيش مع هذا السطح الجنوبي حالة من الغموض المحبب. وإذا كان الإفتاح على الداخل يكون بإنفراج واسع جدا كما في الليوانات العلوية حتى تحار إن كان الفضاء مفتوح أم مغلق ، فإن الإفتاح في البادجير محدود يتناسب مع الكتلة الجدارية المصمتة. وقد " تم استخدام البادجير (مأخوذ من أبراج الهواء الإيرانية-الكلمة الفارسية له بادكير) نظراً لرتوية المناخ بهذه المنطقة بفرض تحريك الهواء فهو يسمح بدخول الهواء دون أشعة الشمس ويمنع نفاذ الرياح المحملة بالأترية عن طريق استخدام الضلف الخشبية ويعتبر هذا العنصر مثلاً رائعاً على كيفية استخدام الإنسان للطبيعة ليزيد من ملاءمة المبنى للبيئة المحيطة به فقد أمكن عن طريقه الحصول على تهوية جيدة وتغيير متكرر للهواء اللذان هما من الأشياء الضرورية المرغوبة في المناطق الحارة الرطبة" [٤.].

وهذا التناسق الجمالي بين الداخل والخارج موجود في كثير من دول الخليج [٥]. يرى فنتوري أن الغموض والتوتر موجودان في كل مكان في عمارة التعقيد والتناقض فالعمارة مظهر وجوهروواقعية ومجردة ووو.. هذه العلاقات المتذبذبة المعقدة والمتناقضة هي مصدر الغموض والتوتر المميزين لوسائل التعبير المعماري (فنتوري ١٩٨٦م) . ثم تحلق بك هذه الفتحاح في تناغم ممتع عبر الريثم الذي تسلكه . ومع ذلك لا يستمر الريثم أو الإيقاع حتى لا يشعرك بالملل فسرعان ما تفاجأ بالمجاورات الكبيرة Super Adjacency كما يسميها فنتوري - كالرواقات والغرف العلوية في الجهة الجنوبية (كحجرة استقبال الضيوف وحجرة سكن أبناء الشيخ المتزوجين وحجرة سكن الشيخ) . - تحطم هذا الإيقاع وتوقظك إلى إحساس جديد إلى لوحة

جميلة. يرى فنتوري أنه يمكن إغناء المعنى عن طريق تحطيم النظام (فنتوري ١٩٨٦م). وحتى لا ينقطع نفسك أويطول لهائك وأنت تتابع إيقاع البادجير الخارجي على الأسطح الجنوبية تستريح مع تدخل فتحات جديدة من غرفة الشيخ في الدور العلوي.. يرى فنتوري أن الجمع القسري بين اتجاهات متنافرة يخلق تعقيدات وتناقضات إيقاعية الشكل (فنتوري 1986م).

لعلنا في حاجة ماسة لأطروحات المعماري الفذ فنتوري لإعادة صياغة عمارتنا النشاز. العمارة المحلية التي تعاني من إنفصام الشخصية . فلم تستطع التكيف وعمارة الغرب الوافدة ولا حافظت على قيم أصالتها المعمارية. نحتاج ذلك بإسقاط مدروس للنظرية من خلال معطيات التراث . ولا يعني ذلك إبقاء قيد الشكل بقدر ما يعني الإنطلاق إلى ما هو أوسع إلى القواعدو المبادئ التقليدية [٦]. الحاجة ماسة لإعادة التشكيل بين المفتوح والمغلق والمستوي والمجوف والخشن والأملس والداخل والخارج مع بعض الإقحامات حتى تنتج لنا عمارة ذات طابع بصري مريح جميل ، فلعلنا نتغلب على هذه البساطة المبتذلة في مساكننا ومبانينا المختلفة وغيرها .

المعاني الإجتماعية

إذا كانت نظرية فنتوري في العمارة بصرية صرفة تقريباً وتجاوز المعاني الجمالية من خلال الشكل فقط، فإن العمارة التقليدية الخليجية احتوت مضامين ومعاني أخرى تتعلق بالناحية الوظيفية. وقد نحى بعض علماء الجمال الى استقلالية المعنى البصري واستقلالية الجمال . فيعتبر بعض العلماء ان الجمال مقطوع الصلة عن أية فائدة ولا وظيفة تتبعه. "يعتبر (كانت) : (أن الجمال هو ذلك الذي يكون ممتعا بالضرورة، وهذه المتعة تنبعث من نفوسنا ونحن ندرك أن هذا الجمال مقطوع الصلة بأية فائدة مهما كانت)، وجاء بعد كانت (شالر Schiller ليقول) : أن العمل الفني لون من ألوان النشاط التلقائي الخالي من الغرض)". [٧] وهذا في رأبي فيه نظر؟؟؟؟؟؟؟؟ " يقول الكاتب المعماري الأمريكي (البرت بوش- بروان) في كتابه (فن العمارة الأمريكية) : أن الفن المحلي هو عبارة عن مسلمات جمالية ارتضاها المجتمع لنفسه، فأوجد مفردات خاصة به تنبع من متطلباته و تعبر عن احتياجاته ضمن قدراته المالية . والجمال في العمارة الإسلامية هو عبارة عن تحقيق وظائف و متطلبات اجتماعية ضمن الإطار التشريعي (الديني)، أو يمكن القول بأن الجمال في العمارة الإسلامية ذو هدف . لقد ذكر المعماري (سوليفان) معماري أمريكي (مقولة مشهور " الشكل يتبع الوظيفة" كقاعدة للعمارة الحديثة، وأن كنت أعتقد أن العمارة الإسلامية قد سبقت (سوليفان) في هذا التعريف منذ زمن " [٨].]

اللوحة التشكيلية للسطح لم تقتصر على النواحي البصرية وإنما تجاوزت ذلك لتوظف الرسالة الإجتماعية وتعكس القيم الإجتماعية السائدة . لتضرب النظرية العمرانية الخليجية أروع الأمثلة وتعطي أفضل النماذج المعمارية التي تخدم غايات المجتمع وتعكس رغباتهم واحتياجاتهم. فعمارة الخليج التقليدية تعكس كثيراً قيم المجتمع الإجتماعية . تلك العمارة تقرأ فيها قصة أولئك الناس المحافظين على مبادئهم وتعاليم دينهم. عمارة أملى المجتمع عليها احتياجاته وأملت عليه إمكاناتها. البيئة التقليدية منغلقة عن الخارج مفتوحة على الداخل باتساع كبير . Introverted . فجاءت المعالجات المعمارية للدور عاكسة لهذه المعاني الإجتماعية . وبذلك يمكنك قراءة قصة إجتماعية جميلة على الدار التقليدية. وبذلك تضيف معنى جميل إلى الناحية البصرية. فالشكل يحتوى مضمون عميق غني . فلم تستقل الصورة البصرية عن المضمون

الوظيفي لها . وبيت الشيخ عيسى بن علي الخليفة حفل بهذه التراكمات الضخمة في المعاني البصرية والإجتماعية.الجدار الضخم في البيت كان مصمماً إلا من بعض الثقوب التي تكشف الخارج للداخل وليس العكس. فغرف الضيوف أو مجالس الرجال فانفتحت لتحاكي الخارج وأما العائلة والخاصة بالشيخ فسترت خلف هذه الغرف وخلف المسطحات الجدارية المصممة تقريبا وفتحات البادجير تداخلت تفاصيلها الإنشائية بإحكام دقيق ليرى من الخارج وليس العكس.ويتصل أهل الدار بالخارج بسهولة ويسر ويعايشوا طقسه الممتع دون أدنى إحساس بخدش الخصوصية..فالمعنى الجمالي لم تستقل به الرغبة البصرية وإنما تعدت لتستوعب المتطلبات الإجتماعية. يقول صالح الهدلول احد منظري المدخل الشرعي لمفهوم المدينة الاسلاميه في المملكة العربية السعودية " ليس بغريب ان يدخل مبدأ تحقيق الخصوصية والحفاظ على حرمة الحياه الاسريه فى صلب اختصاصات الفقهاء، فكشف مالايمكن للسابل فى الطريق رؤيته يعد تطفلا وانتهاكا لحرمة خصوصية الحياه الاسريه ممالا يحتمله السكان ولايقره الفقهاء ويعتبر الاطلاع والكشف اذى وضرا يجب تحاشيه او ازالته ومنعه إذا وقع ..(ويستطرد صالح الهدلول :) "وقد تمثل الاهتمام بتحقيق الخصوصية الذاتيه وحماية السكان فى منازلهم من الكشف والاطلاع فى التكوين العمراني للمدينة العربيه الاسلاميه بعدة طرق منها تحديد ارتفاعات البناء فى المدينة وتفادى الفتحات والنوافذ فى الجدران المطله على الشوارع او معالجتها بأساليب معماريه خاصه وفى التصميم مداخل المنازل من الشارع. "[٩].إلا أننا في مقابل هذه المفاهيم يقف بنا الزمن على عمارة معاصرة نتاجها سمته السطحية والخواء النظري والتقليد الفكري.ومن ذلك إنكشاف الداخل للخارج، لتتلاشى معه مبادئ ضربت جذورها بعيداً في الأرض ونحتت لها سمات في المكان . ولهذا جاءت المسطحات الخارجية تفتقر للمضمون التاريخي للبلد والمجتمع. نحن بهذا السلوك نهدم جداراً ثقافياً ظل قائماً قروناً مديدة يخاطب الزائرين وبيروي لهم تاريخ المجتمع. إن القيم الإجتماعية من أهم الأمور التي تستدعي العناية بها في العمارة المعاصرة لأنها لاتضيف رسالة جمالية ولاتكون طابع بصري فقط وإنما هي طريق إلى رضى المجتمع أو المستخدم للبيئة .فلاحظ أن كثير من المباني المنتجة بالجملة Mass Production تتعرض لكثير من التحولات والتغيير من قبل الساكنين. لأن المستخدمين لهم رغبات واحتياجات مختلفة والمنتج بالجملة نظام واحد لهؤلاء جميعاً .وهنا يحدث التغيير لإعادة الصياغة لتلائم هذا الكم الهائل من المتطلبات الجديدة [١٠] . هابراكن مؤلف كتاب

Transformation of the Site يرى أنه من الصعب الفصل بين السلوك والشكل فهما متداخلان ومحال أن ينفصلا. [11] وتلميذ هابراكن ، مؤلف كتاب Crisis in the Built Environment يفصل ذلك فيرى أنه إذا تمتع الساكن بحرية التصرف فستكون هذه الحرية حافزاً له لتغيير بيئته ولهذا سيكتشف الفريق إمكانيات كامنة في البيئة ويطوع بالتالي تلك البيئة لتلبي رغباته [12]. وهل هناك أقوى من القيم الإجتماعية التي توجه تصرفاتنا في هذه الحياة في نظام الجماعة ؟.

المعاني البيئية

تراث الخليج العمراني يعكس قدرة الأباء والأجداد على التعامل مع العوامل البيئية القاسية من خلال أساليب تخطيطية وتفاصيل معمارية طوعت لخدمة المنطقة وأعطت لعمارته المميزات فى التكوين والتفاصيل وجعلتها متميزة فى مناطق العالم العربي . فعولجت الحجوم التي تأوي تلك الوظائف مؤكدة على كفاءة النظم المعمارية فى التشكيل المعماري وتهيئة الأجواء المناخية المناسبة.تلك النظم المعماريه وتلك المجتمعات التقليدية ماذا يعني استمرارها طيلة

قرون عديدة " ان بقاء واستمرارية المجتمعات التقليدية عبر مئات وآلاف السنين لهو دليل على امتلاكها قدراً من المعرفة ممكن ان يكون مفيداً بذاته او باتخاذها اساساً لتطورات جديدة" [١٣] . هذه النظم تتميز بميزة عجيبة عالجت مشكلة معمارية معاصرة معقدة كثيراً وهي المواءمة بين البناء بعطاءه وتطلعاته التكنولوجية والعصرية وبين توفير مناخ داخلي على مستوى عالي من الراحة من خلال عناصره، مع إضفاء جمال أخاذ وذوق رفيع " لقد أدت الخبرات التي تراكمت عبر آلاف السنين إلى تطوير أنماط بناء قليلة التكاليف توظف فيها المواد المتوفرة محلياً والقدرة على تهيئة المناخ الملائم باستخدام الطاقة التي توفرها البنية الطبيعية المحلية، وتنظيم الفراغات المعيشية والعمل بحيث تتوافقان والمتطلبات الاجتماعية . وكانت هذه العماره على رجة عالية من التعبير الفني بل لم يحدث أن قلت العناية بالمظهر الجمالي عنها بالجانب الوظيفي . وقد اعتمد الساكن في هذه المجتمعات قبل حلول العصر الصناعي و الميكنة على مصادر الطبيعة للطاقة والمواد المحلية المتوفرة في موطنه تبعاً لحاجاته الفسيولوجية. وتعلم الناس في كل مكان وبمرور عدة قرون، كيفية التعامل مع المناخ الذي يوفر لهم المناخ المحلي الذي يرغبون فيه" (فتحي ١٩٨٨م)

هذا الإرث الكبير يمكن أن ننطلق منه إلى إنجاز فريد. فكما يرى المعماري راسم بدران، يمكن أن ننطلق منه إلى منشأ يعبر عن قدرة تكيف مع العوامل المناخية من خلال عناصر تكوينية التي قيمت الماضي واحترمت إبداعه وسخرت لخدمة التكنولوجيا الحديثة بكفاءة عالية متفادية الإبتدال والتقليد الأعمى للأشكال التي جمعت وكأنها قطع أثرية تحفظ في المتحف وللإنسان رؤيتها فقط وليس التعايش مع أوائها ، ننظر إلى هذا التراث كباعث لتطوير مفاهيم وقيم اجتماعية وتخطيطية تساهم في إثراء حضارة المنطقة وإبراز خصوصيتها وربما مساهمتها في إثراء الفكر الإنساني العالمي" [١٤] . لو زار فينتوري دول الخليج في عنفوان عمارتها التقليدية لأصابته الدهشة والذهول ، مثل غيره . فقد أدهشت جدة القديمة زوارها الأجانب من خلال انتشار المشربية حتى عرفت جدة بجمالها بالمشربيات . فأدهشت واجهات مساكن جدة القديمة أحدهم فقال "هذه المدينة ليست محاطة بالأسوار وإنما تحيط بها منازل جميلة جداً كما هو الحال في إيطاليا" [١٥] . العمارة الخليجية استوعبت المكان والزمان . العمارة الخليجية حتوت على كثير من المعاني التي تهز أوتار القلب من حسناتها . فلم تقف الرسالة الجمالية على البعد البصري والحاجة الاجتماعية بل واستوعبت النواحي البيئية . ولهذا استقراراً في لمساحات الجدارية تقرير متكامل للمناخ.

مواد البناء :

وتضيف دراسة لقسم التخطيط أن عمليات بناء أغلب البيوت القديمة قد اعتمدت اعتماداً كلياً على مواد البناء التي كانت متوفرة محلياً في أوقات بناء هذه البيوت والتي يرجع تاريخها إلى نحو ١٠٠ عام تقريباً ، ومن الطبيعي أن تتحكم مواد البناء في طبيعة التصميم والإنشاء ونوعية البناء نفسه ، وكانت مواد بناء الحوائط أساساً من الأحجار المتوفرة محلياً كما تم استخدام الأحجار المحلية في عملية البناء عموماً . كذلك أدت خصائص الحجارة ووسطها غير المستوي إلى قوة وتماسك البناء ، حيث أن استخدام هذه الحجارة في الأساسات يؤدي إلى توفير قواعد تشبه في قوتها قوة قاعدة من الخرسانة.

وما زالت البيوت القديمة القائمة، وآثار بيوت التجار القديمة تشهد على إتقان البناء والتفنن فيه، والاعتناء به وبالزخرفة والنواحي الجمالية وخصوصاً في المجالس.

كان البناء القديم في قارة بسيطاً مرتبطاً بالظروف البيئية حيث تقام البيوت من الأحجار أو الطين المخلوط بالتبن الذي يعمل على شكل قوالب خاصة للبناء

مواد البناء والأنظمة الإنشائية في المباني التقليدية

ويأتي السؤال الكبير: لماذا ندمر تراثنا؟! لماذا ندمر خصوصيتنا وشخصيتنا كمجتمع له خصوصيته أسوة بكل مجتمع بشري له ثقافته التي تميزه عن الآخرين. ألا كان من الأجدر بأي كان يريد بناء مسجد حديث أن يتجه إلى أرض فضاء بمنطقة حديثة الإنشاء بدلاً من القضاء على المباني التاريخية. وإذا استمر الحال على هذا المنوال ستأتي الجرافات والخرسانة المسلحة على كل تراثنا المعماري أو ما تبقى منه، وبعد ذلك تأتي وتأسف وتتغنى بالتراث وإرثنا الحضاري والأصالة وتباكي على الأطلال، فشيء من الرفق بالتراث يا سادة.

في أواخر القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين ظهرت عدة مدارس معمارية غربية تتبنى في منهجها نظريات، عبرت في مضمونها عن القيم المادية التي أنتجتها الثورة الصناعية، وتدعو في مجملها إلى الخروج بالعمارة والفنون من إطار الأشكال التراثية التي رأوا أنها تعتمد على الإثارة البصرية من خلال الزخم الهائل من الزخارف التي تغطي مسطحاتها، وتنادوا بضرورة تبسيط الأشكال والعناصر المعمارية. ودعمت الثورة الصناعية هذا التوجه بإنتاجها لمواد بناء جديدة تعتمد على بساطة التصنيع وسرعة الإنتاج ووفرت له إلى جانب رخص تكاليفها وسهولة نقلها إلى مواقع بعيدة عن مصدر إنتاجها. وبنفس القدر الذي انتشرت به مواد البناء المصنعة انتشرت قيم الثورة الصناعية ومفاهيمها الاقتصادية

البعد الإنساني في العمارة

ينبه جون راسكن على ضرورة رؤية العمارة بمنظور جدي. ويبرر موقفه هذا بإيمانه بأنه يمكن أن نعيش بدون عمارة كما يمكن لنا أن نتعبد بدونها أيضاً ولكن لا نستطيع أن نتذكر بدون عمارة. يتضمن رأي المنظر هذا أهمية البعد التاريخي في العمل المعماري وهو يشير إلى حقيقتين. رؤية التاريخ من خلال العمارة والثانية أن تحتوي المقترحات المعمارية من الخصائص ما يؤهلها لأن تكون خالدة (تاريخية).